

(05) المشكلة الخامسة : { في العادة والإرادة }

هل الاختلاف الذي يفرق بين العادة والإرادة (الإرادة المشحونة بأهواء وانفعالات) في تكيفهما مع الواقع، عائق لإيجاد سبل التقارب والاتفاق بينهما ؟

تصميم الدرس

طرح المشكلة

I. العادة من العائق إلى التكيف

I / أ العادة والطبيعة الحيوية ؛

I / ب العادة نتاج التعلم والاكتساب ؛

I / ج العادة أداة في خدمة التكيف.

II. الإرادة من التكيف إلى العائق

II / أ الفعل الإرادي والخصوصية الإنسانية ؛

II / ب الإرادة و التكيف ؛

II / ج الإرادة عندما تعيق التكيف .

III. تفاعل الإرادة و العادة

III / أ الإرادة و تكوين العادات ؛

III / ب بعض العادات تعزز الفعل الإرادي .

حل المشكلة.

طرح المشكلة :

إن الإنسان من حيث هو كائن حي فإنه خاضع لذات الآلية التي تحكم جميع الكائنات الحية، سواء أكانت هذه الآلية فطرية (الغريزة) أو كانت آلية مكتسبة استجابات شرطية (العادة). و في مقابل هذه الآلية يؤدي إنسان استجابات إرادية تجسد طبيعته العاقلة. وهذا التعارض في صور الاستجابات التي يبديها الإنسان تدفعنا إلى التساؤل التالي :

هل العادة من حيث هو استجابة آلية تعيق إرادتنا أم أنها تحقق ما نريد؟ وهل ما نريده ليس سوى ذلك الذي تعودنا عليه؟ وفضلا عن ذلك، هل الاختلاف الذي يفرق بين العادة والإرادة (الإرادة المشحونة بأهواء وانفعالات) في تكيفهما مع الواقع، عائق لإيجاد سبل التقارب والاتفاق بينهما ؟

I / أ العادة والطبيعة الحيوية :

• عرض وضعية مشكلة :

لنتابع أطوار الحكاية التراثية التالية :

جاء في بعض الأساطير الشعبية - أخي الطالب - أن ملكا
اختلف مع وزيره في تقدير أهمية كل من الطبع والتطبع¹ في حياة
الحيوان والإنسان، فأصرّ الملك على أن الترويض بالتطبع يستطيع تغيير
الطباع، واستشهد على دعواه بقطط علّمها أن تحمل الشموع وتقف حول
المائدة أثناء انهماكه وضيوفه في تناول الطعام. فأنكر الوزير أن يكون
هذا سببا كافيا لكي تغير هذه الحيوانات طباعها الأصلية، وحينما آن أوان
عشاء الملك لجأ إلى تجربة بسيطة أطلق فيها فئرانا أمام القطط التي تحمل
الشموع، فما كان من هذه إلا أن ألقت الشموع وجرت في أثر الفئران،
فاشتعلت النار في القصر وكادت أن تأتي عليه، ولكن الملك لم يكن يهتمّ
بذلك، وبقي شاردا بعقله يفكر في وسيلة أخرى يثبت بها أن (الطبع لا
يغلب التطبع) بالضرورة حتى يفحم وزيره ويهزمه.

- تحليل الوضعية المشكلة :

نستطيع أن نميّز من خلال أحداث هذه الحكاية الشائعة نوعين مختلفين من السلوك :

* سلوك الحيوان في المرة الأولى (حمل الشموع ووقوفها حول المائدة) وهو ناتج عن التطبيع والترويض كسلوك متعلم مكتسب تحول بالترار إلى استجابة شرطية؛ حالها حال عاداتنا الحيوية¹ كتعود جسدنا نمط معين من أنماط الغذاء أو دواء من الأدوية، أو كتعود الكريات البيض التغلب على الجراثيم وسمومها، أو عاداتنا الحركية من قبيل ارتداء الملابس وما إلى ذلك..على اعتبار أن عاداتنا الحركية تدل على استعداد مكتسب لتكرار بعض الحركات والقيام ببعض الأفعال، وكعاداتنا النفسية المحضة التي تدل على الاستعداد المكتسب الذي يبعث الإنسان على الإحساس أو التفكير أو الفعل.

* سلوك الحيوان في المرة الثانية (عندما جرت في أثر الفئران) ناتج عن غريزتها وطبيعتها من حيث أن هذه استعداد وراثي يمثل الدافع الحيوي الأصلي لنشاط الكائن الحي حفظا لبقائه وإشباعا لحاجاته وذلك بالإقبال على الملائم والإحجام عن المنافي. وتوصف الغريزة أولا: بأنها نوعية أي واحدة بالنسبة لأفراد النوع من جنس واحد،

1- أحمد زكي بدوي، معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، مكتبة لبنان، 1993، ص،

وثانيا : بأنها فطرية ومستقلة عن التجربة، وثالثا : بأنها عمياء تجهل الغرض الذي تحققه ¹.

تقودنا محاولة حل المشكلة إلى البحث عن مواضع التشابه والاختلاف بين الغريزة والعادة :

1. الغريزة طبيعة أولى : ومن خلال الوضعية السابقة نلاحظ

أن هناك علاقة عضوية بين العادة والغريزة وهو ما يدفعنا إلى التساؤل : هل تتكون عند الحيوان أفعال تعودية دائمة؟ وهل هذه الأفعال تتسق مع الغريزة أم تتضارب معها؟

لكل نوع من أنواع الحيوان أنشطته الغريزية التي تختلف في صورتها عن الأنشطة الغريزية لدى نوع آخر، وإن كانت تلك الغرائز تشترك في مادتها وذلك لكون الغريزة وجدت لضمان بقاء الحيوان واستمراره في الحياة.. والحيوان يقوم بأنشطته الغريزية من غير تعلم أو تدريب، وتتعلق هذه الأنشطة بالغذاء والنسل والدفاع.. الخ. ومن هنا فالغريزة: " ..هي فعل يقوم به جميع أفراد النوع على نمط واحد من غير خبرة ولا تعلم ومن غير إطلاع على غاية الفعل، أو على علاقة تلك الغاية بالوسائل المؤدية إليها " ².

1- المصدر السابق ، ص ، 220 .

2- كلاباريد (1873- 1940) : نقلا عن جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني ، بيروت ، لبنان ، 1982، ص ، 646 .

فالفعل الغريزي - أخي الطالب- فعل ثابت عند جميع أفراد

النوع إلى حد ما. وقد ثبت علميا أن هذا الفعل الغريزي قد يتكيف لمواجهة ما يقتضيه بقاء الفرد والنوع والمحافظة على حياتهما. وهذا يعني أنه يمكن للحيوان أن يعدل من حركاته ويضيف إليها نوعا من السلوك لمواجهة ما يطرأ في العالم الخارجي من تغيرات. وعلى هذا الأساس فإن الثبات الذي تتصف به الغريزة لا يعنى الجمود المطلق.

والحال هذه فإن الأفعال الغريزية لدى الحيوان تكون بمثابة الأفعال المعتادة لدى الإنسان وكل من الأفعال الغريزية والعادية تشتركان في خاصيتين أساسيتين :

- **الثبات :** إن حصول الاعتياد (Habituation) في صيرورة الفرد، متكيفاً مع مثير معين أو وضع خاص أو بيئة عامة معينة، معناه استقرار السلوك ونمطيته. فلهذه الأفعال المختلفة صفات مشتركة، وهي أن العادة تمثل حالة راسخة ودائمة، مثل الغريزة، لا تتغير بسهولة.

- **الآلية :** والاعتياد، كمهارة حركية أو نظرية أو طريقة في العمل أو في التفكير، يحمل معنى تكرار الفرد لتصرفه بطريقة آلية وعفوية تكاد تكون غريزية.

2. **العادة طبيعة ثانية :** ولكن، بالاستناد إلى الوضعية المشكلة،

نستطيع أن نميز بوضوح وبسهولة بين العادة والغريزة، فنتساءل إذن : ما الذي تتفرد به العادة من خصائص -لاسيماعند الإنسان- مما يجعلها تفترق عن الغريزة افتراقا كلياً أو جزئياً ؟

للإجابة على هذا التساؤل، لا بد من تحديد مفهوم العادة وما يقوم عليه من مميزات :

أ- مفهومها : إن أثر العادة محدود لدى الحيوان؛ فهو مقصور على تعديل بعض مظاهر السلوك الفطري وليس تغييره كله؛ ويختلف الأمر لدى الإنسان حيث يمكن له أن يكون سلوكيات جديدة لمواجهة مطالب الحياة المختلفة. ومن هذا يمكن تعريف العادة". بأنها قدرة مكتسبة على أداء عمل بطريقة آلية مع السرعة والدقة والاقتصاد في المجهود ، فتقلل العادة من الجهد النفسي والعمل الذهني. وتخالف الغريزة في أنها مكتسبة في حين أن الغريزة وراثية¹.

ب- مميزات العادة : تطلق العادة على اكتساب المهارات الحركية والقدرة على استخدامها بطريقة شعورية. ونستنتج من ذلك أنها تتميز، من بين أشياء كثيرة، بخاصيتين أساسيتين :

- التعلّم : ذلك أن العادة صيغة مكتسبة في السلوك لأداء عمل ما عن طريق ما يحصل للنفس من تغير يتم بالتعلم؛ ولا يتعلم الكائن الاستجابة فقط للمنبهات الطبيعية، بل لما ينوب عنها أي للمنبهات الاصطناعية .

- الإدراك الشعوري : أن عملية التعلم ليست فقط عملية اكتساب الفعل بطريقة آلية وإنما للإدراك دور كبير فيها. وتوجد درجات

للتعود؛ والفرق بين هذه الدرجات هو من جهة بعد العملية عن بؤرة الشعور أو قربها.

وهكذا يتبين أن العادة وإن شابها الغريزة في بعض جوانبها، إلا أنها تختلف عنها في مناحٍ كثيرة تجعل منهما، في النهاية، نشاطين متميزين أشدّ التمايز¹.

I / ب العادة نتاج التعلم والاكتساب :

لا شك في أن الحركات التي يقوم بها العازف الموسيقي الماهر هي غير الحركات التي قام بها في بداية تعلمه؛ إذ الفرق بينها لا يقتصر على السرعة والدقة فقط. فما هي العوامل التي تؤدي إلى تعلم العادة؟ وهل هي ذات العوامل التي تتحكم في تعلم أنواع العادة الأخرى؟

1. عوامل اكتساب العادة : إن اكتساب أي عادة من العادات لا يتم إلا إذا توفرت فيه عوامل؛ فالفعل لا يصبح عادة إلا إذا تكرر،

1- ومع ذلك ثمة من حاول الجمع بين الطبيعتين، فاعتبر العادة طبيعة ثانية تعود إلى الطبيعة الأولى ولا تختلف عنها إلا في الدرجة، فيقول رافيسون Ravisson : " لا فرق بين العادة والطبيعة إلا في الدرجة ويمكن إنقاص هذا الفرق إلى غير نهاية، كالجهد بين الفعل والانفعال [...] وحينما تهبط العادة من نواحي الشعور المنيرة، تحمل النور معها إلى أعماق الطبيعة وليلها الحالك، فهي إذن طبيعة مكتسبة، لا بل طبيعة ثانية ترجع في النهاية إلى الطبيعة الأولى " [جميل صليبا، معجم علم النفس،

وكان العقل واعيا، والانتباه قويًا، والمجتمع حاضرا. إنه إذن مشروط بعوامل ؛ ترى ما أهميتها ؟ وما درجة تأثيرها في اكتساب العادة ؟

1/أ. العضوية والتكرار : إن العازف في المثال السابق لا يستطيع حفظ النوتات ولا تجسيدها إذا لم يقدِّم بإعادتها مرات ومرات. والتكرار ليس المقصود به إعادة الفعل على نفس النمط، وإنما تكرار الفعل من أجل ضبطه وتصفيته من شوائبه. ولذلك يعتبر "أرسطو" (384-322 ق.م) أن العادة (بنت التكرار).

لكن في المقابل فإن "ليبنتر" (1646-1716) لا يجعل من التكرار سببا في نشأة العادة، ويعتبر "أن كل فعل هو في البداية، عادة لأنه إذا لم يبق للفعل أثر في نفسك، لم تتكون العادة وإن كررت الفعل مائة مرة"¹. فتكرار التمارين إذن يقوِّي بعض العادات، ويسقط منها ما ليس نافعا.

1/ب. العامل العقلي : إن المتعلم إذا لم تكن له إدراك لما يتعلم فلن يتعلم أبداً ، والتلميذ إذا لم تكن لديه إحاطة بما يدرس فلن ينجح أبداً ؛ فالعادة لا تكون إلا إذا كان العقل حاضرا، ووظائفه العليا (من إدراك وذكاء وتذكر وتخيل) ناضجة ومتوقّدة، وهذا — على خلاف ما تقول به النزعة السلوكية — يستدعي التمييز بين العادة التي هي نشاط نفسي تخص الإنسان وبين الاستجابات الشرطية التي يشترك فيها مع الحيوان من جهة، ومن جهة أخرى — على خلاف ما تقول به النظرية

المادية — ضرورة التمييز بين العادة وردود الأفعال الآلية التي يشترك فيها الإنسان والحيوان.

1/ج. العامل النفسي: إن أقوى عامل يساعد على التعلم واكتساب العادات، الانتباه والاهتمام. فالاهتمام بالعمل أقوى عوامل الانتباه، كما أن الجهد المبذول برغبة وشوق، يسهّل اكتساب العادات، وكلّما كان كلّ ذلك أقوى، كان الاكتساب أرسخ، وبدون العاطفة والميل النفسي يتعذّر التعلم¹. وهذا العامل لا ينحصر دوره في اكتساب العادات فحسب، بل وفي الحفاظ عليها وترسيخها، فإذا قلّ اهتمام الشخص بعادة من العادة، وكفت رغبته فيها وخمد شوقه إليها، تتراجع هذه العادة لدى الشخص إلى حد الانطفاء.

1/د. العامل الاجتماعي: إن كثيرا من عاداتنا نكتسبها بواسطة المجتمع؛ فنحن نكتسب منه اللغة ونتعوّد على ذلك، ونكتسب منه العرف والتقاليد وبعض القيم فتصبح عادة راسخة في حياتنا وفي أذهننا. والمجتمع يدفعنا إلى القيام ببعض الأفعال على نمط واحد كعاداتنا المهنية التي تجعلنا خاضعين، في أكثر الأوقات، لانبضاط محدّد. كما أن المجتمع يشجع على انتشار بعض العادات، ويتسبب في عزوف الأفراد عن عادات أخرى.

1- لخصّ دولاكروا (J. Delacroix 1873-1937) مجمل هذه العوامل في قوله : " إن الانتباه وإرادة التعلم وكيفية تصور العمل، ومقايضة النتائج بالغاية المقصودة وحالة الذهن في أثناء الكسب والنضج وقياس التقدم، ومؤلفة التعلم مؤلفة معقولة كل ذلك يؤثر في تكوين العادات حتى أنه ليؤثر في الذاكرة الميكانيكية كما يؤثر في الذاكرة العقلية ". [نفسه، ص، 700].

2. أنواع العادة :

2/أ. العادات الحركية : وهي استعداد مكتسب لأداء بعض الحركات، والقيام ببعض الأفعال، منها ما يكون بسيطا لا علاقة له بالإرادة ، ومنها ما يكون مركبا، ومنها ما يستلزم التدريب والتمرين، فهذه العادة قد بدأت بالتكرار والتعلم، ثم أصبحت بالتمرين غير محتاجة إلى الجهد والإرادة .

2/ب. العادات النفسية : وهي استعداد مكتسب يبعث على الإحساس أو التفكير أو الفعل على الصورة التي يحسّ أو يفكر أو يعمل بها الشخص من قبل؛ كعادة التفكير التي تساعد على الترتيب والتناسق في الأفكار والتعمق فيها وسرعة توجيهها، وعادة الصبر وضبط النفس وكظم الغيظ.

2/ج. العادات الاجتماعية : وهي سلطة المجتمع غير المدونة في قوانين ودساتير، وهي محفوظة في صدور الأفراد وتحيط بهم في كل مناسبة، وفي جميع تعاملاتهم مع غيرهم، فهي من جهة تلزم سلطتها على الأفراد ، ومن جهة ثانية يجد الأفراد الراحة في طاعتها. وكثيرا من الفضائل أو الرذائل الاجتماعية ماهي إلا عادات، فالعادات هي العامل الفعّال في حفظ النظام الاجتماعي، وهي التي تجعل كل فرد راضيا إلى حد ما بما قدّر له¹، فالعادات الاجتماعية قهرية تفرض نفسها

1- دينكن ميتشيل ، معجم علم الاجتماع ، ترجمة/ إحسان محمد الحسن ، دارالطبعة،

على الأفراد، وكل مخالفة لعادات المجتمع تعرض صاحبها لعقوبات الرأي الجمعي.

ومما تقدم يمكن تصنيف العادات في جملتها كالتالي:

- عادات خاصة أو جزئية : وهي العادات التي يتم فيها تكرار فعل على نمط واحد، ككتابة كلمات معينة وبطرق خاصة، أو القيام بحركات معينة أو عزف قطعة موسيقية معينة دون تغيير في تواترها.

- عادات عامة : وهي التي تشتمل على أفعال متباينة من جنس واحد؛ فنطاق العادة العامة أشمل من نطاق العادة الخاصة لأنها تشمل الاستعداد الفكري والمهارة الفنية والأسلوب، كما أن إنقان العازف لغة من اللغات عادة عامة، فهي تقتضي أن يكون المتكلم بها ملماً بتركيب الألفاظ وتطبيق قواعد في كل بناء جديد. وكنتيجة نقول: إن العادة الخاصة تكفي باسترجاع الأفعال السابقة كما هي دون تغيير، بينما العادة العامة فتقتضي التجديد.

I / ج العادة أداة في خدمة التكيف :

إن اتّصاف العادة بالآلية جعل البعض يعتبرها متحجرة تفقد الإنسان إنسانيته؛ فالى أي حدّ يمكن الاعتقاد بأن معظم العادات - على النقيض من ذلك - تُعدّ عاملاً إيجابياً في التكيف ؟

لنتصور الطفل الصغير وهو يتعلم الكتابة اليدوية؛ فمن السهل ملاحظة الحركات العنيفة التي يقوم بها في بداية التعلم، فيكاد يشمل التوتر

العضلي الجسم كله حيث يتقطب الجبين، وتلتوي الشفتان واللسان التواءات متوالية، وتكون قبضة يده على القلم شديدة حتى تتصلب الأصابع والذراع كله، وتقوم اليد الأخرى بحركات فيها نوع من الاختلاج، ثم تزول هذه الحركات رويدا رويدا، وتتركز القوة العضلية بالقدر الكافي دون زيادة أو نقصان، ومن ثم تتحقق الرشاقة والسرعة في الكتابة.

ويمكن أن نستنتج من هذا أن سلوك الإنسان في معظمه ناتج من أعمال تعودية، وهذه الأعمال لها الأثر الكبير في حفظ مشاعر الفرد والجماعة معا، كما أنها تنظم المجتمع وتحفظ أوضاعه من التغير من كل تغير سريع و مفاجئ، وتساعد الفرد على التأقلم والتكيف مع المحيط الإجتماعي والطبيعي.

فالعادة تؤدي إذن إلى :

- جعل العمل المعتاد سهلا ميسورا بعد أن كان في أوله صعب وشاق، فتعود فعل من الأفعال يجعل ذلك الفعل آليا لا يحتاج إلى الانتباه، ويجعل فكر المرء حرا طليقا.

- إتقان العمل؛ إن العادة بما تخلق من مرونة في الأعصاب و العضلات تكون سببا في قدرة الشخص على أداء الأعمال بسهولة، فهي تكسبه المهارة والخبرة والدقة والرشاقة.

- الاقتصاد في الوقت؛ إن الإنسان عند تعلمه لعمل ما يتطلب منه الأمر جهدا و وقتا كبيرين في البداية لكنه عندما يعتاد عليها يصبح قادرا على إنجازها بجهد أضعف وفي وقت أقل. وعلى هذا فالعادة

توفر جهدا و وقتا، وتزيج التوزتر الذي يظهر لدى الأشخاص غير المعتادين على مواقف أو أعمال معينة، وبالتالي فإن هذا يقلل من معاناة الشخص وشعوره بالتعب.

- **تكوين السلوكيات التي تلعب الدور الأساسي في تكوين الشخصية،** فيتعلم الشخص أن يكون كريما قنوعا، فيجب عليه لاكتساب عادة جديدة، أن يتخلص من عادة قديمة؛ فخير للإنسان أن يقطع صلته بالعوادات السيئة دفعة واحدة وأن لا يداريها، والتخلص من العادات السيئة لا يكون بمكافحتها مباشرة فحسب، بل يكون باكتساب عادات طيبة مضادة والتمرّن عليها تمرنا متتابعا¹.

- **تيسير غرس المبادئ التربوية الحميدة في سن الطفولة،** فيكتسب الطفل أكثر عاداته بالتقليد والتلقين والتدريب؛ وتعلم عادة خاصة في الصغر من شأنه أن يحدث استعدادا عاما لتعلم عادة أخرى مماثلة في الكبر تبقى ملازمة لحياته.

1- وليم جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين في علم النفس، ترجمة / محمد علي العريان، عالم الكتب، ص، 115 .
<http://www.onefd.edu.dz>

وخلاصة القول، أنه برغم تصلّب الروتين - الذي هو صورة سلبية للعادة وهو من أكبر عوامل التفهقر والانحطاط - وبرغم أن التعود على أفكار معينة قد يسدّ الطريق أمام الأفكار الجديدة¹، فإن الأفعال التعوّدية غالباً ما تكون أفعالا ملائمة للقيام بعمل من الأعمال على أسرع وجه وأكمل صورة من حيث الاقتصاد في المجهود. والعادة تكيف مكتسب لتحقيق التوافق بين الشخص ومطالب حياته المادية والمعنوية؛ ففائدتها عظيمة لا من حيث إنها مجموعة من الآليات الجديدة المفيدة فحسب، بل من حيث قيمتها في تهيئة الشخص لمواجهة مواقف جديدة بالاعتماد على المهارات والمعلومات المكتسبة، وبالتالي لاكتساب مهارات ومعلومات جديدة. فيكون التعود في هذه الحالة قد أدّى إلى خلق قدرات جديدة.

1- وهو ما جعل بعض المفكرين يقول : " إن كبار العلماء يفيدون في النصف الأول من حياتهم، ويضرون به في النصف الثاني منها ". وما جعل روسو يقول : "خير عادات المرء ألا يتعود شيئاً " .

II. الإرادة من التكيف إلى العائق

II / أ الفعل الإرادي والخصوصية الإنسانية :

• عرض وضعية مشكلة :

أخي الطالب لنتابع الحوار التالي بين التلميذين راغب وحسام وهما منكبّان على مراجعة دروسهما استعدادا لاجتياز الامتحانات الفصلية

— (راغب): لقد تعبْتُ من الاسترسال الطويل في هذه المراجعة؛ إنني أراها لا تكاد تنتهي حتى تبدأ من جديد!

— (حسام): يا صديقي .. ها أنت تعود إلى إثارة الموضوع ذاته الذي أثّرته منذ أيام، وأنه من الضروري التخفيف من ضغط الدراسة، والترويج بالتواصل عبر الانترنت، أليس كذلك؟

— (راغب): وما هو الحلّ إذن؟ فقد اشتد بي القلق لذلك أنا ألحّ في الطلب ..

— (حسام): إن جوابي هو نفسه الذي أخبرتك به من قبل يا صديقي، فالدراسة أولى من أيّ رغبة أخرى قد لا يكون لها أثر نافع على المدى البعيد، فالدراسة تترجم طموحنا وإرادتنا في النجاح؛ فهي خيارنا الأفضل.

— (راغب) : أعرف يا صديقي أننا حسمنا الأمر من قبل في هذه المسألة؛ ولكن هذه المرة الوضع مختلف ..

— (حسام) : وما الذي جدّ حتى أصبح الوضع مختلفا؟

— (راغب) : إنني أصبحت غير قادر على مواصلة المراجعة قد فقدت القدرة على الاستيعاب والفهم، ولهذا من الضروري التغيير والترويح على النفس واصبحت رغبتي في التواصل عبر الانترنت جامعة. ولهذا سأذهب للانترنت سواء أكنت برفقتي أو كنت وحدي!.

— (حسام) : والله إنك تحيّرنني ؛ فلا أدري هل من واجبي أن أرضي طموحي فأخسر صداقتك، أو عليّ أن ألبي رغبتك فأخسر مستقبلتي؟!

— تحليل الوضعية المشكّلة :

تمثل الوضعية لحظتين من حياة طالبين يستعدان للإختبار، كان موقف حسام فيهما منسجما مع قراره الأول، أما راغب فقد اضطرب موقفه و تتناقض مع قراره

* في اللحظة الأولى حسمَ كلاهما أمر الاختيار بين الدراسة والتسلية لصالح الدراسة، فكان الموقف نموذجا للفعل الإرادي الواعي الذي يحمل في طيّاته تحليلا لعناصر الوضع واتجاهاته، مع مناقشة (أو مداولة) أدّت إلى اتخاذ القرار، وتنفيذه. وبقي (حسام) وحده - على ما يبدو - مقتنعا بأن القرار الذي إتخذه صائبا و عزم على مواصلة تنفيذه

إلى النهاية، بخلاف (راغب) الذي ظل يتردد تحت تأثير رغبته المتحكمة في مشاعره و سلوكياته.

* ولكن في اللحظة الثانية وجاءت بعد بأيام من اللحظة الأولى، يقع (حسام) في أمر يثير الحيرة، ويتطلب منه اتخاذ قرار ما. وهذا القرار سيصطدم بعوائق مفاجئة؛ فقد يؤدي تمسكه بقراره الإرادي الأول، ورفض رغبة صديقه الشديدة في الترويح عن النفس، إلى البقاء وحيدا في البيت مراجعا لدروسه، منجزا لواجباته، بالرغم من التعب والإرهاق، واضعا نصب عينيه شهادة البكالوريا، ويوم النجاح فيذهب عنه التعب وتدبُّ فيه الحيوية. وبالمقابل، فإن انصياعه لرغبة صديقه، بالرغم من معرفته المسبقة بأن قضاء وقت للتسلية أمام الأنترنت ما هو إلا سعادة آنية وليست دائمة، يفضي به حتماً إلى إضاعة مجهوداته في التحضير، ومن ثم فشله في الامتحان؛ فلا يستقر أمره على قرار لتأرجح الاختيار بين العقل والعاطفة، وبين الفعل والانفعال.

وفي محاولة البحث عن حلٍّ لهذه المشكلة، نستعرض أولاً خصائص الإرادة:

1. مفهوم الإرادة :

تعتبر الإرادة من العمليات النفسية - العقلية التي تهدف إلى تكيف الاستجابة التي تؤدي إلى حسم الصراع القائم بين مجموعتين من الميول؛ و بهذا فإن افرادة لا تنفصل عن الاختيار، فالفعل الإرادي ينطوي على أحكام تفريرية في الأساس. ومن هنا نفهم الإرادة بمعنيين :

- **المعنى العام :** تدلّ على قدرتنا الكلية على الحياة ومواجهة العوائق التي تواجهنا، بما فيها ذلك تجاوز ردود أفعالنا الغريزية، والتصرفات النمطية الآلية التي توصف باللاواعية¹ بسبب التكرار المتّصل.

- **المعنى الخاص :** الإرادة تحدث عندما يكون هناك عدد من نظم الأفكار المتعارضة ومتوقف على وجود مجال وعي لدينا معقد التركيب². و يلزم عندها، أخي الطالب، الحسم في تلك المتعارضات والميل إلى أحد أطرافها بعد تأمل و قرار.

2. شروط الإرادة :

إن الإرادة لا تكون قوية، وعاملا في التكيف، إلاّ إذا توفرت الشروط التالية : —

- **تصوّر المثل الأعلى :** أن يمتلك الشخص أهدافا سامية ومثلا عليا تتبّر قراراته وتوجه ميوله وهو ما وجدناه لدى، للتلميذ (حسام) في الوضعية السابقة وقد حدّد هدفه الأسمى في النجاح؛ وإذّاك يدرك أن عليه أن يتخلّى عن كل ملذات الحياة وزينتها، ويتحمل الصعاب والتعب

1- يعتبر جيمس أن مقدرة الأنا الواعية على تحدّي الغريزة واللاشعور جزء من الإرادة العامة للإنسان.

2- وليم جيمس، أحاديث للمعلمين والمتعلمين ، ترجمة / محمد علي العريان ، عالم الكتب ، ص 219 .

والإرهاق من أجل الحصول على الهدف. وبهذا أخى الطالب تحول مجرد الميل إلى إرادة.

- **الثقة بالنفس** : إن الشخص الذي لا يقدر ذاته، ولا يستطيع الحكم على قدراته والثقة بها، يكون مسلوب الإرادة، وهو ما جسده التلميذ (راغب) في الوضعية السابقة، يقول في نفسه إنني لا أستطيع النجاح، ولا أستطيع الدراسة، ولا حتى الفهم إلا من خلال تلبية رغباتي، بينما قويَّ الإرادة يجد نفسه قادراً على فعل كل شيء؛ على الدراسة والفهم، والبحث في الكتب والمصادر.. الخ .

- **تنظيم الأفكار** : إن الناس يتفاوتون في قوة الإرادة كما يتفاوتون في قوة العقل، ولا تكون الإرادة قوية إلا إذا كانت الأفكار والنزعات المقومة لها قوية؛ فالإرادة الصحيحة تعتمد على قوة الأفكار وتنظيمها، وسيطرة النفس على العواطف والرغبات؛ إن أعظم الرجال هم الذين لهم القدرة على السيطرة على عواطفهم وأهوائهم وإدارة أنفسهم بأنفسهم¹.

وبهذا المعنى تقوم الإرادة في مقابل الغريزة و العادة وردود الأفعال اللاواعية. ولما كانت الإرادة تتحدد على أساس الوعي والقرار

1- قال أحد الحكماء الصينيين لو تسو (Lao-Tseu : 570 - 490 ق.م) " إن معرفة الغير تعتبر حكمة ، ومعرفة الذات تعتبر حكمة أعظم . وفرض السلطة على الغير تعتبر قوة ، لكن فرضها على الذات تعتبر قوة أعظم " . [الموسوعة الفرنسية (Encarta) بتصرف] .

العقلي، والتحكم في النزعات النفسية والميول و الرغبات، فإنه لا يصح نسبتها إلا للإنسان، فهي بهذا خاصية إنسانية.

II / ب الإرادة و التكيف :

إن فاعلية السلوك الإرادي تتجلى فيما يحمله، في تركيبه من صفات ذاتية، وكذا فيما ينطوي عليه من مرحلة منطقية خلال جريانه: —

1. **تركيب الفعل الإرادي** : من حيث التركيب ينقسم الفعل الإرادي إلى:

— نية الفعل : وتشتمل على تصور سابق لنتيجة الفعل. ولنتصور (حسام) في المثال السابق وهو منكب على مراجعة دروسه ونتيجة للتعب يخطر له بأن يترك الدراسة ويذهب إلى السينما للترويح عن النفس، فإذا لم يقم بالفعل، فإن فعله هذا يبقى مجرد نية ؛ (بما أن هناك رغبة وتأمل وتَمَنُّ فحسب) .

— إرادة الفعل: وهي تحتوي على عناصر أخرى: كالرغبة في القيام بالشيء أو تركه مع الإقدام على الفعل بتنفيذ الحكم الصادر عن مداولة العقل. ولنسترجع المثال السابق، ولنفترض أن (راغب) لم يذهب إلى السينما، واقتنع بأن له متسعاً من الوقت لإنجاز عمله، وفهم دروسه واستيعابها. ولنفترض أنه في الأخير قاوم نزعاته ورغباته، وحسم

أمره فبقي في غرفته مثل (حسام) يراجع دروسه، ويحضّر لامتحاناته؛ إننا نعدّه، عندئذ، قد حقق إرادة الفعل.

2. صفات الفعل الإرادي : يتميّز الفعل الإرادي بجملة من الصفات أهمّها أن:

- **الفعل الإرادي فعل جديد** : وتتصف جدته في أنه يمنع الشخص من الاندفاع الآلي إلى الفعل ، فيحوّل الغريزة أو العادة إلى فعل واعٍ فيه قصد، وينظم الحركات والأفعال والتصورات تنظيمًا يتوافق والظروف الطارئة.

- **الفعل الإرادي فعل تأملي** : إن الشخص الذي يريد شيئاً يدرك ما يفعل، وبالتالي يشعر بفعله، ويعيه، ويدرك تمامًا الغاية من فعله لأنه فعل معقول؛ فالمرء قد يرغب في أشياء قد يكون من المستحيل تحقيقها، ولكنه لا يفعل إذا لم يُرد عقله ذلك.

- **الفعل الإرادي يرتبط بالذات** : ولهذا يتبدّل بتبدّل الأفراد، ولكنه أبعد ما يكون عن الميول والنزعات الطبيعية مثل الأفعال الغريزية والانفعالية، لأنه يترجم قرارات العقل وعليه يتحمل الفرد تبعه قيامه به، وبذلك يكشف عن جانب من خصال الشخص وأخلاقه؛ إنه مخالف للفعل الاعتيادي، لأن العادة تقوم على التكرار، ومخالف للغريزة لأنها عمية¹.

1- بيرتراند راسل (B.Russell)، نقلًا عن/جميل صليبا، علم النفس،

3. مراحل الفعل الإرادي :

عزيزي الطالب: بناء على ما تقدم يمكن تُقسّم الفعل الإرادي من حيث الترتيب المنطقي_ إلى أربعة مراحل :

- **التصوّر:** لابد للشخص من تصوّر الفعل والهدف منه؛ فالطالب لا يقرر الفعل إلا بعد أن يتصور الهدف من الدراسة وهو النجاح في الامتحان، والقائد العسكري لا يستطيع خوض المعركة إذا لم يكن له تصوّر لهدف يحركه وهو الانتصار .

- **المداولة:** أخي الطالب لا تظهر الإرادة إلا عندما نكون أمام ميول متعارضة فيضطر الشخص قبل أن يقرر القيام بالفعل أو تركه أن يناقشه، وتأخذ هذه المناقشة شكل الأخذ والردّ؛ لتنتهي إلى حكم.

- **القرار:** وهو الحكم الذي ينتهي إليه الشخص بعد مناقشة ميوله المتعارضة في الغالب، فيعزم على الفعل أو الترك، و من ثم يتحدد ميله النهائي.

- **التنفيذ :** إن التنفيذ متعلّق بالظروف الخارجة عنّا، ولا يمكن اعتبار القرار فعلاً تامّاً، إلا إذا كان مصحوباً بشيء من التنفيذ؛ فلا يعتبر الفعل مُنجزاً إذا بقي عبارة عن نيّة، بل لا يعتبر كذلك إلا متى احتاج قرار الفعل إلى تنفيذ، والتنفيذ لا يكون إلا بفعله تماماً.

إن هذا الترتيب ليس سوى ترتيب منطقي؛ فالفعل الإرادي لا يمكن تقسيمه ولا فصل بعضه عن بعض؛ إنه فعل واحد، وجميع

البواعث والدوافع إليه واحدة، ونحن لا نستطيع أن نحصي عددها، ولا أن نجرّد بعضها عن بعض. والإرادة لا تمثل دورها الحقيقي إلا في المرحلة الثالثة أي مرحلة القرار والعزم، أضف إلى ذلك أن البواعث والدوافع أمر اصطلاحى، لأنه لا وجود لعنصر عقلى لا يمتزج مع الانفعال .

II / ج الإرادة عندما تعيق التكيف :

أخي الطالب ؛ ترتبط الإرادة بجملة الأنشطة الذهنية تؤثر فيها وتتأثر بها، فقد ميزنا في المشكلات السابقة بين التذكر الإرادي والعفوي، وبين التخيل والحلم وبين الكلام والاتصال في مملكة الحيوان... وكل ذلك على أساس الإرادة، وبهذا فهي تبدو كظاهرة معقدة ومتشابكة تنمو مع نمو الشخص وتتغير بتغيره. ولأن الإرادة ميل فهي ترتبط وتتداخل ببعض الانفعالات والأهواء. وبما أنها لا توجد إلا حيث تتعارض النزعات والميول والرغبات. فهي ترتبط بالحياة انفعالية وقد تتأثر بها. وبالتالي فهي لا تفعل أكثر من أن تقطع التنازع بين الميول والرغبات. وعلى أساس ذلك، يُخيّل إلينا أحيانا أن الإرادة والرغبة لهما نفس الدلالة، وأنه لا يوجد فرق بينهما إلا في الشدة والدرجة. ونفس الكلام يقال عن الأهواء والتمنيات ؛ فهذه العمليات تعتمد على الشعور الانفعالي بالدرجة الأولى. فهل لهذه المماثلة ما يبررها، كأن نقول مثلا : إن التلميذ في شهادة البكالوريا يتساوى لديه- بنفس القدر- تمنّي النجاح ، والرغبة في النجاح ، وإرادة النجاح ؟

1. التمني ليس من الإرادة :

إن التمني ليس له حدود ولا شروط؛ فبإمكان الشخص أن يتمنى أي شيء، وقد يكون هذا الشيء قابلاً للتحقيق وواقعياً، فيتمنى الطالب النجاح في شهادة البكالوريا دون أن يعني ذلك أنه سينجح فيها، أو أن يتحصل على تقدير ممتاز ولا يعني الحصول عليه بالضرورة، فليس كل ما يتمناه المرء يدركه؛ وقد يكون التمني مستحيلاً وخيالياً، عرفه عرفه الجرجاني فقال: "طلب حصول الشيء سواء كان ممكناً أو ممتنعاً" قال ابن الأثير "التمني تشهي حصول الأمر المرغوب فيه وحديث النفس بما يكون وما لا يكون". فقد يتمنى الشخص أن يكون نهار الشتاء أطول من ليله، أو أن يعود من نحب من الأموات إلى الحياة من جديد. إذن فالتمني هو اعتباطي ليس له قيود محددة أو ضوابط .

2. الرغبة دافع للإرادة :

أما الرغبة، أخي الطالب، فتكون أشد من التمني، ولكنها أقل من الإرادة؛ فهي كما وردت في لسان العرب هي الضراعة والمسألة¹ فعندما أقول: فأنا لا أقصد الشيء نفسه، فقد أُرغب في السفر، لكنني في الواقع لم أفكر في مسألة السفر وما تقتضيه من ترتيبات مادية ونفسية، وبالتالي تكون رغتي مجرد ميل عام للترويج عن النفس من خلال السفر، أو ربما ترجمة لتدمير من وضع قائم، ومع هذا يمكن لهذه الرغبة أن تكون المادة الأولية لإرادتي، أي قد تتحول إلى إرادة إذا باشرت التفكير في الهدف من التفكير والوسائل التي تمكنني من السفر. ومن هذا المنطلق يمكن القول أن الرغبة لا تتحقق إلا إذا تحولت إلى إرادة عمل، وعندما ترتبط الرغبة بالإرادة تكون الإرادة أكثر إصراراً على التحقق، وبهذا فإن الرغبة تزيد من قوة الإرادة. ذلك أن الفعل الإرادي فعل قوي يُبنى على الشعور ويندمج في الحركة ذاتها لتحقيق بعض

التمنيات والرغبات؛ ووجود الإرادة قد يستدعي وجود الرغبة، وكل إرادة تتضمن شوقا ورغبة هي إرادة مشحونة في جوهرها، لأننا نشعر معها بإمكان حصولنا على الشيء المرغوب فيه بصورة مسيطرة ومؤثرة، ولكن لا تتحول الرغبة إلى إرادة إلا إذا انتصفت بصفة الطلاقة والانسجام مع القيم والإرادة الاجتماعية .

3. الرغبة مثبتة للإرادة : —

ومن جهة أخرى ايها الطالب، قد تكون الرغبة مضادة للإرادة؛ فقد أرغب في التنزه و أمتنع نفسي من هذه الرغبة بلا جدوى فتتغلب رغبتني على إرادتي، وقد أشتهي طعاما في غير أوان الطعام ولا رادّ عن هذه الشهوة. فالرغبة تولد في رحم الميول وأهوائه فتسير بلا تروّ وتبحث دوما عن الإشباع باندفاعية، وعندئذ قد تقف بين الإرادة وتحقيق مطالبها ، فلا يحصل التكيف إلا على نحو نسبي، أو لا يحصل تماماً.

وهكذا نستنتج أن الإرادة قد تكون مدفوعة بأهواء وانفعالات ورغبات ولكن لا تخضع لها بالضرورة، بل إنها تجاهد على كبحها وتعمل على ترويضها، فتكون آنئذ فاعلية حرة أساسها العقل والقدرة على التمييز والاختيار. إذ أن الفعل الإرادي الحقيقي يكمن في معارضة الواجب والعقل لنوازع النفس والهوى، أو في وقف الميول على التنازع فيما بينها ؛ فهي جهد يشتمل على حكم تقدير يدفع المرید إلى الاختيار والترجيح الواعي، وعلى حكم تقرير يقتضي كثيرا من العزم والتصميم والمثابرة والتحدّي. وبذلك يكون بمقدور الإرادة أن تتجاوز مأزق نسبية التكيف؛ هذا المأزق الذي تتسبب فيه اندفاعية الانفعالات والأهواء في المقام الأول.

III / الإرادة و تكوين العادات :

فما هي طبيعة العلاقة التي تربط العادة بالإرادة ؟

- التفسير الآلي:

إن أساس التفسير الآلي يعود إلى النظرية الأرسطية التي ترد نشأة العادة إلى التكرار، حيث أن تكرار سلوك معين على نمط محدد يحوله إلى آلية، أي إلى نشاط خال من الوعي والإرادة، وقد ذهب أصحاب النزعة الترابطية إلى التأكيد على الطابع الآلي للعادة، وذلك من خلال النظر إليها على أنها سلوك ينحل إلى جملة من العناصر التي تتربط فيما بينها على نحو آلي، بحيث يكون كل عنصر تابعا لما قبله، مستدعيا ما بعده، و هكذا تتشكل الأفعال التعودية، في سلسلة من الحركات البسيطة، إذا استثير أولها توالى بقية الحركات من خلال التداعي دون حاجة للوعي والإرادة. وعلى هذا الأساس يكون "الحفظ عن ظهر قلب مجرد تكرار للنص أي لعناصره وربط بعضها ببعض. بحيث تصبح الكلمة عن طريق الاشتراط إثارة تدعو الكلمة التي تليها ويخضع هذا الاشتراط لما سماه "ثرندايك Thorndike" (قانون الأثر) والذي يعني أن الترابط بين المثير والاستجابة يتعزز بواسطة النتائج المرضية¹.

1 محمود يعقوبي: الوجيز في الفلسفة المعهد التربوي الوطني (1987-1988)

إن هذه النظرة تختزل العادة إلى مجرد استجابات شرطية، وعلى هذا النحو فهي لا تميز بين العادة والروتين والاستجابات الشرطية التي يكتسبها الحيوان. ثم إن التجارب التي قام بها بعض الباحثين في مجال العادة، بينت أننا في تعلمنا للعادة لا نكرر الحركات الجزئية نفسها، بل في كل إعادة نحتفظ ونحذف ونظيف ونعيد تنظيم السلوك بحيث يبدو أكثر كمالاً مما كان عليه في البدء. ولولا هذا التجديد ما أمكننا الحديث عن تحسن عملية التعلم.

- النظرية الغشطائية:

يستند الغاشطليوني إلى جملة من الملاحظات والتجارب التي تمت حول اكتساب العادات ومن خلالها تبين لهم أن العادة لا تنشأ عن تكرار لسلوكيات معينة أو عناصر من هذا السلوك أو ذاك، بل في كل مرة يعيد المتعلم السلوك الذي يريد أن يتعود عليه فإنه يعدل ويغير من حركاته التي تعلمها في البدء، بغرض تحسينها والبلوغ بها الصورة الفضلى المرغوب فيها، وأن الحركات التي هي جزء من سلوكه المتعود، لا قيمة لها إلا ضمن الكل الذي هو السلوك، وهذا يعني أن العادة وحتى الحركات التي تتألف منها ليست مجرد منعكسات شرطية. ويكتمل تشكل العادة عندما يبلغ السلوك الصورة الكاملة، والبسيطة، وهي التي يتم إنجازها بأقل الحركات جهداً وأكثرها نتيجة¹.

فإذا كان اكتساب العادات لا يتوقف على التكرار، كما بين الغاشطلت، وبالتالي يكون للانتقاء والإرادة دور في اكتساب العادات، فإن الغاشطلت لم يبينوا أي دور يبقى للإرادة بعد تشكل العادات واستقرارها.

النظرية الحيوية:

يقول "فولكيي" P. Foulquié " يمكن أن نطلق النزعة الحيوية على ذلك التصور الذي يربط العادة بالظواهر الحية، والميول الأساسية للكائنات الحية. وترتفع الحياة مع الإنسان إلى مستوى الفكر، وبهذا فإن العادات تجسد التأثير أو النفوذ الذي تمارسه الروح على النشاط الآلي للجسم. إنها تلغي المقاومات، فيتصرف الفكر بيسر، وتحقق الإرادة دون جهد¹. ومن ثم فإن ارتباط العادة بالفكر و بالحياة فهي لا تختزل إلى نمط ثابت من السلوك، فلما كانت العادة مرتبطة بالحياة وتنزع إلى التكيف مع متطلباتها لزم من ذلك أن لا تركز للثبات. فقد نظر إليها ليبنتز (Leibnitz) على أنها مظهر من مظاهر النشاط الذي يقوم به الكائن الحي من أجل التكيف.

وفي محاولة البحث عن حلّ للمشكلة وبيان العلاقة الوظيفية القائمة بين العادة والإرادة، لا بدّ من التسليم بالحقائق التالية :

- إن تعلمّ العادات يتوقف على شدة الدافع واستمراره من جهة، وعلى صعوبة المشكلة من جهة أخرى، وعلى ما يحدث من تأثير متبادل بين

1 P. FOULQUIE : Psychologie les éditions de l'école 5^{em} éd 1965 ;
p125 <http://www.ouic.edu.dz> جميع الحقوق محفوظة

هذين العاملين.

- إن الغاية من تعلم عادة من العادات هو التقدم والتطور، والتكيف مع العالم الخارجي؛ وبذلك فإن العادة ملازمة للإرادة.
- إن تعلم العادات ليس فعلا جامدا وإنما هو فعل متجدد دوما يهدف إلى مواجهة الصعوبات والتكيف مع الواقع¹.
- تتكوّن العادة بتكرار التمارين وتصحيح الأخطاء، وهي - بخلاف الغريزة - أكثر ميلا إلى التحرر؛ إنها حديثة ومكتسبة لدى الفرد، وتؤدي إلى حذف الانعكاسات غير الصالحة والحركات غير النافعة، فتحررنا من قيود الماضي، كما أن في العادة فاعلية الانتخاب إذ لا تحفظ من الماضي إلا ما كان نافعا، وهذا خاضع عند الإنسان لتأثير العقل والإرادة؛ إنه تأثير عظيم لكونه يوفر عناء التكرار الفاسد.

وعليه يمكن أن نستنتج أننا نكتسب العادة بالإرادة، ولو لا الإرادة لتعذر الحديث عن العادات واقتصر السلوك البشري على النشاط الغريزي كما هو الأمر في عالم الحيوان.

1- يرى (أرسطو) أن الحجر لا يتعلم الصعود وإن ألقيته في الفضاء ألف مرة، كما أن لهب النار لا يتعود الهبوط.

III / ب بعض العادات تعزز الفعل الإرادي :

كيف تحرر بعض العادات الإرادة وتعززها ؟

1. الخبرة المكتسبة بالعادة والعزم : الإرادة قدرة و عزم في اتخاذ القرار، لكنها ليست مطلقة وعلة أولى؛ وكما أنها قوة منع وكف، فهي أيضا محصلة خبرة هي العادة ؛ فعندما يكون الشخص بين سلوكين متعارضين يستدعي العزم وأخذ القرار، فإذا كان متعودا على السلوك الذي أراده تنتفي كل مقاومة أمام الإرادة ويصدر الفعل عنها دون جهد كبير، و على هذا النحو تلعب العادة دورا في تعزيز الإرادة.

2. العادات الاجتماعية منهل للإرادة : إن الإنسان كائن اجتماعي لا يمكنه أن يعيش بمعزل عن الجماعة، وحياته وسط الجماعة تؤدي به إلى التأثر بها والتأثير فيها، ويقتضي منه ذلك يتمثل عاداتها وأعرافها وتقاليدها؛ فأهوائه ورغباته وحتى أفكاره يستمدّها من مجموع المعاني العامة والقواعد والأوامر التي تفرضها قوة الجماعة¹.

1- ولذلك يرى علماء الاجتماع أن سلوك الفرد ما هو إلا تعبير عن سلوك الجماعة التي يعيش فيها وإرادته من إرادة الجماعة، فالشخص لا يستطيع أن يخرج إلى الشارع على غير ما يريده المجتمع ، كما أنه لا يستطيع أن يستخدم لغته الأصلية في غير المجتمع الذي يتحدث بها، ليس لأنه لا يريد ذلك وإنما المجتمع هو الذي يفرض عليه هذا السلوك أو ذاك، ومن هنا فكثير من سلوكيات الفرد ما هي إلا تعبير عن رغبات الجماعة، وكأن الشخص في الوسط الاجتماعي ما هو إلا حلقة تكمل السلسلة الاجتماعية .

لكن هذا لا يعني أن شخصية الفرد تدوب داخل الآلية الجماعية، وأن إرادته خاضعة لسلطة خارجية، بل إنه في الكثير من الأحيان تكون القواعد الاجتماعية دافعا لتحرير الفرد من ربة تلك القواعد. وكثير من الشخصيات البارزة في التاريخ كانت نتاجا لضغوطات اجتماعية، وكثيرا ما تحدت إرادة الجماعة وتجاوزتها، فقد تحدى "غاليلي" (1564-1642) قواعد مجتمعه وثار عليها وبرر فكرة دوران الأرض التي كانت محرمة وممنوعة ، وكاد أن يقتل بسبب فكرته هذه ¹.

ونخلص من هذا التحليل إلى الإقرار بأن الإرادة هي العامل المحفز لتعلم السلوكيات الاعتيادية، كما أن الإرادة لا تنمو ولا تتطور إلا بالممارسة والتمرين؛ فكلما مرّ الإنسان نفسه على الجهد الإرادي اكسبه ذلك عادات نافعة. وإذا كان الإنسان لا يولد بإرادة قوية كان لابد له من تمرين نفسه على التعلم، فضعف الإرادة أو فقدانها يعود بالدرجة الأولى إلى عدم الممارسة وقلة التمرين. كما أن اكتساب العادات الجديدة يحتاج إلى إرادة قوية، ذلك أن الإرادة تغير الأوضاع القديمة وتبدل الحركات الآلية، والعادات الصالحة تسهل الإرادة وتعين على الاقتصاد في الجهد .

1- وقد واجه قبله سقراط إرادة المدينة (المجتمع الأثيني) وقبل الموت عوض الخضوع لها، والتنازل عن أفكاره ومبادئه.

إن سلوك الإنسان سواء الفطري منه أو المكتسب، يهدف إلى التكيف مع العالم الخارجي ومواجهة مشكلات الحياة؛ ومن الأعمال التي تساعد على التكيف العادة والإرادة وهما من الوظائف النفسية التي يقوم بها الإنسان. والعادة متصلة بالإرادة لأن الحركات الإرادية مبنية على حركات آلية مستقلة ومسبقة بتصور واضح، وهذا يدل على أن العادة ليست فقط وظيفة من وظائف الحفظ والإتباع، بل كذلك عامل من عوامل التقدم والإبداع، كما أن الآلية ضرورية للإرادة فهي تسهل القيام بالفعل وتزيد في سرعته، وتقلل من الخطأ والتعب، وتجعل العادة متقنة محكمة، فهي تحذف الكثير من الحركات الزائدة وتصحح القديم، وتحرر فاعليتنا من القيود الزائدة.

الخلاصة :

العادة والطبيعة الحيوية :

- إن العادة من حيث هي استعداد مكتسب دائم نسبيا يشبه الغريزة من جهة الثبات ويختلف عنها من جهة كونه مكتسبا. ولهذا قال عنه "أرسطو" أنه طبيعة ثانية، وهو طبيعة ثانية لأنه يأتي بعد الغريزة ويتأسس على الميول الطبيعية.

العادة و التكرار

• العادة بالنسبة لأرسطو وليدة التكرار، أما بالنسبة لليبننتز فهي تنشأ في أول التعلم و التكرار يثبتها لا غير يقول: 'ويعتبر' أن كل فعل هو في البداية ، عادة لأنه إذا لم يبق للفعل أثر في نفسك، لم تتكون العادة وإن كررت الفعل مائة مرة "؛

• يمكن تمييز العادات في جملة من الثنائيات (عادات حركية - مثل التزام الشخص بحركة معينة- وعادات نفسية- كتعود الشخص على طريقة معينة في التفكير أو الانفعال-) (عادات فردية - كعادة القراءة أو النوم...- وعادات اجتماعية - كالعادات التي تصحب الحفلات الدينية والاجتماعية..-) (عادات عامة- ككتابة كلمات معينة وبطرق خاصة...- عادات عامة- تشتمل على أفعال متباينة من جنس واحد وتشمل الاستعداد الفكري والمهارة الفنية والأسلوب..)

• هي التصرفات التي يتخذ العقل قرارا بشأنها قبل الإقدام على تنفيذها؛ فالإرادة تحدث عندما يكون المرء أمام عدد من الأفكار، والمواقف والتصرفات المتعارضة، والتي تقتضي من الشخص الاختيار.

العادة و الآلية

• التفسير الآلي: إن أساس التفسير الآلي يعود إلى النظرية الأرسطية التي ترد نشأة العادة إلى التكرار، حيث أن تكرار سلوك معين على نمط محدد يحوله إلى آلية، أي إلى نشاط خال من الوعي والإرادة، وقد ذهب أصحاب النزعة الترابطية إلى التأكيد على الطابع الآلي للعادة.

• **النظرية الغشطائية :** العادة لا تنشأ عن تكرار سلوكيات معينة أو عناصر من هذا السلوك أو ذاك، بل في كل مرة يغير المتعلم من حركاته التي تعلمها في البدء، بغرض تحسينها والبلوغ بها الصورة الفضلى المرغوبة.

• **النظرية الحيوية :** إن العادة تجسد التأثير أو النفوذ الذي تمارسه الروح على النشاط الآلي للجسم ولما كانت العادة مرتبطة بالحياة، وتنتزع إلى التكيف مع متطلباتها لزم من ذلك أن لا تركز للثبات.

تضامن العادة و الإرادة

• **إن الإرادة هي المنبع الأصيل لوجود الفعل الاعتيادي؛** وبداية أي فعل اعتيادي لا تتم إلا بإدراك وإرادة. كما أن العادة تسهل تحقيق الإرادة، فالذي اكتسب عادة الكتاب عندما يقرر الكتابة و التأليف في موضوع معين فإن عادة الكتابة التي لديه تساعده على تحقيق إرادته، فإذا كان مفتقرا لهذه العادة في الغالب تبقى فكرة الكتابة في ذلك الموضوع مجرد أمنية، ولا تتحول إلى إرادة إلا بعد اكتساب عادة الكتابة وهكذا يتضح أن العادة والإرادة متضامنان.

المخرج من الإشكالية الأولى:

إن الإحاطة بحقيقة العالم الخارجي تبدأ أولاً وأساساً من معرفة الذات لأحوالها ووظائفها. وقُطب الوظائف النفسية الموكول إليه تحقيق تلك الإحاطة وهذه المعرفة ليس إلا الإدراك باعتباره قناة الاتصال الرئيسية التي تربط الذات بالعالم الخارجي؛ وما الوظائف النفسية الأخرى سوى خادمة له، وفي نفس الوقت تتهل منه مادتها، وعلى ضوء هذه المادة، ترسم مخططاتها وتحدّد غاياتها. وإذا كانت علاقة الإدراك بالإحساس تفاعلية جدلية من حيث أن كلاّ منهما يتأثر بالآخر ويؤثر فيه، فإن العلاقة ذاتها تتعقد بين الوظائف الأخرى فيما بينها؛ وكما أن اللغة ترسم معالم الفكر، نجد الفكر يؤسس لها نظامها الدلالي والتواصلية، وهو لا يحدث إلا من خلال الوعي والشعور، ولكنه في ذات الوقت غير مقطوع الصلة بالدوافع والرغبات المكبوتة، والخبرة المكتسبة التي يتمّ استحضارها من الماضي كلياً أو جزئياً، وإعادة تركيبها في صور متمثلة لذاتها أو لغاية إبداعية؛ سواء كان اكتسابها بالتعلّم بجهد إراديّ، أو بحكم العادة، أو بتضافرهما كوحدة لا تتجزأ.